

باسم الله الرحمن الرحيم.



مدخل إلى التربية النفسية

تهتم التربية بالفرد ككل وبنموه كوحدة متكاملة وبشخصيته من كل جوانبها جسميا وعقليا واجتماعيا ونفسيا، مع إرساء التوازن بين هذه المجالات، والتربية إذ تتضمن عناصر كثيرة تهدف إلى بناء عقل الفرد وجسده تهتم أيضا بتعديل السلوك ودوافعه في النفس، إذ ليس الغرض هو زيادة التحصيل المعرفي وإهمال النفس بكونها العامل الأساس في تحديد الاختيارات الفردية والسلوكية وتوجيه الميولات والقدرات وبناء الذات الفاعلة وتجاوز الأزمات، وما لغير ذلك جعل سبحانه لتزكية هذه النفس وتقويم اعوجاجها منزلة الفلاح وهي غاية ما يرجوه الإنسان في هذه البيئة الابتلائية "الحياة". (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا). ونازعا الفجور والتقوى ليسا عارضين بل هما موغلان في النفس البشرية، ويعني ذلك أن تطهير هذه النفس من فجورها وتحليلتها بالتقوى هما هي ملاك الأمر ليس فقط في الجانب التعبدى بل الفاعلي والمجتمعي والحضاري، وانظر إلى قوله تعالى (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَارِ)، قرن سبحانه بين الإيمان والإصلاح والتقوى وبين الإفساد في الأرض والفجور، فالعملية الإصلاحية الحضارية لا تنبني بهذا المعنى إلا على هذه التقوى.

ولا مشاحة في المصطلحات، فالتقوى بتعبير العصر - هي ذلك التوازن النفسي - الذي يدفع بالفرد إلى تحقيق ذاته، وبناء مجتمعه، لكن هذا التعبير مجرد من قيمته الإحيائية، وموارده السنائية، فتحقيق الذات بالمصطلح القرآني لا يقتصر - على الفاعلية المادية في المجتمع، يعني رفاهية المأكل والملبس، والتطاول في البنيان، بل يتجاوز هذا المعنى إلى بُعد خالد هو تحقيق الاستخلاف في الأرض، (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)، والاستخلاف هنا بمعناه الابتلائي، (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم)، فالله يريد من عباده أمراً واحداً وما خلقهم سبحانه لغيره، وهو تحقيق العبودية له، هذه العبودية التي هو أهل لها بما خلق وسوى ثم قدر فهدى وأي عمل لم يندرج تحت هذا المبنى فهو مردود، ولا قيمة ولا وزن لبناء حضاري مهما بلغ صرحه إن تجرد من غاية الخلق هذه، واطمأن بالكسب لدار لا بقاء لها، وارتقاء المجتمع المدني المعاصر لا يعني أنه حقق هذا الاستخلاف بل نقيضه، وإن كان التطور المادي دليلاً فاسمع لقوله تعالى (مَنْ كَانَ يَرِيدَ

العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد)، فهو تعجيل لدار كُتِبَ لها أن تفنى بحلول الأجل، ولا يبقى منه شيء يوم يُعرضون لا تخفى منهم خافية، فقل (أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها)، والغرض هنا هو توجيه القصد لا نبذ الوسائل التي هي مكاسب هذه الدنيا ومتاعها، يعني أننا في بنائنا لهذا المجتمع الذي نسعى بتوفيقه سبحانه لإرشاده لغايته الاستخلافية لا يجب أن نركن لهذه الحظوظ الفانية ونطمئن بها ونجعلها شاغلنا وقصدنا، وهَبْ أنك بنيت هذا المجتمع المدني وأعليت صرحه وشيدت بنيانه وصرت للعالمين أميراً وقائداً، هل حققت غاية هذا الاستخلاف، لا والله، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً.. إنما القصد هنا هو بناء ذلك المجتمع الإيماني الذي جعله الله خير أمة أخرجت للناس، مجتمع يبني لدار البقاء ويسعى لها، (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً)، وإذا ضرب في الأرض مُعَمِّراً فلا لمتاع يرجوه ويستغني به، بل لأنه أَمَرَ أن يتخذ الأسباب ويتبغى الرشاد، فإن حاز الدنيا وما فيها فلا يفرح بشيء منها، وذلك معنى قوله تعالى (إن الله لا يحب الفرحين) أي الذين بلغوا سنام بهجتهم وسرورهم بجمع فتات هذه الدنيا، بل يبقى حتى ويده ملأى بذلك المتاع متعلقاً قلبه بالله سبحانه وما أعد له في جنته..

صحيح أننا نعي هذه المعاني ونسوقها في كل مجلس، لكنها لا تجد سبيلاً لواقعنا، حتى ذلك الواقع الإصلاحى، فغالب الدعوات الإصلاحية اليوم تدعو الناس إلى الدنيا بدل دعوتهم إلى الله، ولدى كثر الحديث عن المكاسب الحضارية وبناء الدول وتشبيد المؤسسات رغم أن هذا الخطاب لم يعهده الرعيل الأول ولا شب عليه، وهل سمعت الحبيب صلى الله عليه وسلم يوماً يدعو إلى هذه الحظوظ، نعم هو يعلم أنها ستأتي يوماً، وستفتح خزائن الدنيا على المسلمين وسيطاول حكمهم، لكنه لم يدع إلى ذلك وابتغائه قصداً، بل حَذَّرَ منه عليه الصلاة والسلام، (ما الفقر أخشى- عليكم، ولكن أخشى أن تُبْسَطَ الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم)

وما بعثه الله مُشِيداً للبيان بل دَاعِياً إلى -الله- بأذنه وسراجاً منيراً، أما البناء والتمكين والتشييد فذلك من أمر الله، (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى- لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً)، والشقي يفهم من هذه الآية أن يسعى لذلك الاستخلاف والتمكين والأمن ولا يفهم منها أن يكون مؤمناً عاملاً للصالحات.. وقد قيل لا تُضَيِّعْ ما استُكْفِيت، ولا تشتغل بما كُفِيت. فالله كفاك أمر الدنيا وأمر استخلافك والتمكين لدينه، فلا شأن لك به، وأَمَرَكَ أن تكون مؤمناً عاملاً للصالحات، وهذه الصالحات هي ذاتها

أسباب ذلك الاستخلاف، لكنك اذ تسارع في اتيانها لا تنظر إلى هذه الحظوظ بل ترى الله مستحقاً لهذا العمل منك، وسائلك عنه يوم تلقاه..

بيت القصيد هنا أن نجعل دعوتنا هذه سراجاً منيراً، لا بتلك الأضواء التي تملأ شوارع المدينة، فاذا رأى الناس بها عجزوا أن يبصروا.. بل منيراً بضياء الإيمان، ذلك النور الذي يصدع في الأفق فيهتز له عرش الرحمن اجلالاً، وتخشع له آذان الملائكة، وتطمئن إليه أفئدة المؤمنين. والله يكفيك أمر التمكين سبحانه، بل من قلة الأدب مع الله أن يسوء ظنك به فلا تُسلم له بما هو أهل له، الله هو المدبر، وهو القاهر، وهو القيوم، وهو الجبار، فهل يعجزه أن ينصرك؟ ويستعظم المسكين مكاسب المدنية ويرهبه الفارق الذي بينها وبينه، فيسارع إلى البناء والتشييد والإعمار، زاعماً أنه يريد أن يلحق بالركب، ركب الحضارة، ناسياً أن الله أمره بغير ذلك، بغير ذلك قطعاً، وما أجل وصفه سبحانه.. (أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء)، فالمجتمع العربي اليوم لا يستشعر إلا هذا الظماً لتلك المدنية التي يساق إليها عبداً لا سيداً، (حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوَّاه حسابه، والله سريع الحساب).

ظماناً لا يجب أن يكون إلا لرضوانه سبحانه، وابتغاء مرضاته، واستشعار الفقر والفاقة إليه، فلا غير ذلك ينجينا من شدة حسابه..

وأنتم اذ تسمعون هذه الكلمات ربما تعونها فتسلمون بها وربما قلتم هذا ما ندعو إليه ونؤمن به، لكن أينما يعمل بها حقاً، وأينما يجعل هذا منهاج حياة بدل أن يكون كلمات تلقى وتُنسى، أينما يجعلها منهاج اصلاح ودعوة وبناء، منهاجاً أصيلاً لا مجرد شكليات، ولا نفع والله في تخريج أطفال يحفظون القرآن وأفئدتهم لا تعيه ولا تتشرب بمعانيه ولا تجعله قائداً ونصيراً، بل سنام مراد الواحد فيهم أن يصير طبيباً ومهندساً وقاضياً ثم لا يكثرث بعدها بغاية الخلق تلك، ولا يبتغي في ما آتاه الله نصرته المستضعفين ولا اعلاء هذا الدين، وقد سبقتنا إلى ذلك المدارس الخاصة وأبليت فيه بلاءاً حسناً فلا داعي إلى إضافة مدرسة أخرى إلى تلك الصفوف.. وتُعنى بهذا نفسك التي بين جنبيك وأسرتك وحيك، وأحبابك، إن لم تكن لتلك الغاية داعياً فلا تسأل الله جزاءً ولا تبتغ عنده منزلة، وغالب الأسر اليوم يؤزون أبناءهم على حب الدنيا وابتغاء المناصب فيها والتباهي بمتااعها، ولا ينفع بعد ذلك أن تكون مصلياً وصائماً، فحب الدنيا وحب الآخرة لا يجتمعان في قلب مؤمن، ثم تجده في يومه وليله منهمكاً بذلك المتاع، بجمعه وعدّه وتحصينه وابقائه، قلق في قلق، حتى اذا سجد بين يدي الله لا يدري أي دعاء لهج به لسانه لفرط انشغاله بحظوظ الدنيا، فعليها يستيقظ وعليها يأوي إلى فراشه. أعيد، وإن كان مصلياً وإن كان صائماً، فما فُرِضت الصلاة إلا لتكون ذكراً،

فما نصيب اللاهي منها اذا نَقَرها ثم انفض إلى دنياه، وما نصيب المرء من القرآن اذا حفظه لسانه ونسيه قلبه وبيانه، وما نصيب المرء من حفظ أسماء الله العلية إن لم يكن مستحضراً لمعانيها، فإذا سره أمر شكر الكريم، واذا حزبه أمر فزع للرحيم، واذا أُوذِيَ استغاث بالنصير، واذا أذنب سأل الغفور، واذا هَمَّ بالمعصية تذكر السميع العليم، ما نصيبه من هذه المعاني إن كان لا يذكر الله إلا قليلاً..

قضيتنا اليوم ليست إعادة سَنِّ العبادات أو تعليم القيم والأخلاق أو تلقين العلوم والأفكار، قضيتنا احياء الايمان في تلك القلوب، ايماناً صادقاً يفيض أنواراً على الجوارح والأركان، ايماناً يُداعِب تلك الأفئدة فيملأها يقيناً بالله، فتنهض بلا تكلف لأداء أمانتها، وتؤكد استخلاصها، أولئك الذي يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه، إن عذاب ربك كان محذوراً.